الزهراء

تابع ج ٢ : م ١

الحكومة المصرية في الشام[1]

كانت الدولة العثمانية الى أواخر منتصف القرن الثالث عشر جسما كبيرا تعروه نوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوته أو يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طالت عليه معاودة النوبات قد يألفها ويظن أنه بزيء من كل خطر على حين كثرت آلامه . والادوار العصبية أشد ظهورا في ألم الجسم واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع أن يدفع ضراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معها قوة وفي الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكم فيها من أمراض عضالة وساورها من اوجاع . غفلت الدولة عن تعهد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسسوها بنيانها فكانت تعلو وتسفل وتطفو وترسب بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ؛ تقوم بالفرد ولا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول ادارة . وأهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء فأصبحت في حروبها يوم ضعفها تستهلك اكثر

(١) من محاضرات الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق القاها في نادي المجمع ، وخص بنشرها مجلة (الزهراء) ، وهي من مواد كتابه « خطط الشام »

مما تستحصل لان جيش الانكشارية وهم مستندها في قوتها عراه الانحلال. فغدت الوقعة التي كان يكتفى فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين الفاً ثم يشغب ولا يعمل عملا . ولا عبرة بالعدد اذا كان المجموع أقرب الى التفسخ ومعنويات المقاتلين الى الضعف

ان بعض العوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من جملتها في هذا القرن. والذي قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتمرده على رؤسائه وبضعف الزعماء. واختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج والوزراء والملوك فى دار الملك . فكان. وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفّس خناق الامة من عربدتهم . وان كانت العقوبة التى نزلت بهم في الشام أخف لان بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم . وبعد أن تخلصت الدولة والامة منهم صعب على الدولة في بضع سنين أن تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات . وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طوالاً وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل. وكيف يتأتى ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام ، لا تفتأ منتقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان

ولم يخطر ببال الدولة يوم قلم محمد علي في مصر — ومصر لعمري أمّ كل عجيبة — ان يتدرج بعد قتل المماليك في مراتب القوة والسيادة حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوتيه البرية والبحرية وينشط الزراعة والتجارة. وتسمو به الهمة ان لا يكتفى بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على أوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التى جرت على الاصول في تنظيم جيشها

وادارتها ونشر المعارف بين أفرادها . وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل المختلف الامراض اصعب من مداواة جسم له مرض واحد اذا عولج كان اقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطاً واسعة سريعة ، والدولة العثمانية تنظر الى هذه المظاهر باهتة وقلما يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فاصبحت دولة ابن عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت باخرى عليها واستفادت من تخالفهم وتباين اغراضهم بعد ان كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات ومنفردات بعددها وعُددها ، ولكن الجيش الذي يصل الى اسوار فينا على عجلات البقر ويقاتل المحاربين والمسالمين بالسيف والنشاب أصبح يحتاج الى اسباب في النقل اسرع وسلاح في الفتك أقطع . غدا يحتاج الى علم وعُدَد اكثر من احتياجه الى اسماء ضخمة وعَدَد . واصبحت السياسة والادارة والحرب علوما عملية ، والمدرسة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيوش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها افرادها . فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة ؟ وكيف لا تتجلى الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ودول تحركت ونمت وربت ؟ وبين امة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم تمثلهم ولم تتمثل فيهم

نسب ميشو انحطاط الدولة العثمانية واخفاقها في حكم البلاد التي افتتحتها الى عدة أسباب اهمها الجهل والجمود والغرور . قال ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية اوربا اخذ الاتراك يضيعون شيئاً من

قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية . فكان العثمانيون باديء بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم . وبه احرزت التفوق على الامم التى تريد اخضاعها لسلطانها . وغدت أوربا في القرن السادس عشر ولمعظم ممالكها جيوش يقاومون بها اعداءهم . وانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية واخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاما ورقيا في المغرب . على حين كان الاتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين اعدائهم وجيرانهم . ويزاد على ذلك ماعبث بكيان الاتراك من الخرافات وقلة التسامح فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا على ولاية يحاولون أن يحكموها بنظاماتهم ويغرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم . فاقتضى لهم من ثم أن يبدلوا وجه كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في البلاد التي ينزلونها وأن يقضوا على أهلها أو يضعونهم بحيث لا يستطيعون أن يناجزوهم الشرّ ويرفعوا رؤوسهم فيهم . ولذلك يلاحظ أن الاتراك استولوا مراراً على بلاد المجر فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ولم يستطيعوا بحال أن يؤسسوا فيها مستعمرة أو موطناً ثابتاً وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى أقطار أبعد والاحتفاظ بها وبهذا نجت ألمانيا وايطاليا من غارات الاتراك وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم وينزلوا فيها كثيرا من أبنائهم

قال « ومن الاسباب الرئيسة التي أضعفت القوة الجندية في الاتراك الحروب التي كانوا أعلنوها على أوربا وفارس فقد صدهم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى ، وجهادهم في النصارى أضرّ بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت

طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ماوراء النهر وقفقاسيا أصبحوا عاجزين عن قتال أوربا ، فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من أمم الغرب وظلوا بعدئذ بين عدوين تقريبا يومهما زوالهم . ولقد حمل الاتراك معهم – مثل جميع البرابرة الذين أتوا من شمال آسيا – نظام حكومة الاقطاعات وكان أول عمل يأتيه أولئك الشعوب الرحالة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعيها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالا قط للاقطاعات ان تكون وراثية لتكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن نشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة هذين الشعبين واحدة وما أشبه أشياع روملوس بأشياع عثمان . ويتفاوت الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان للعثمانيين ظلوا كما كانوا في الاصل أما الرومان أيام فتوحهم فلم يزهدوا في معارف من فتحوا بلادهم ولم يستنكفوا من الاخذ بعاداتهم ولا معبوداتهم . لم يقتبس الاتراك من الامم المغلوبة شيئاً وتشددوا في أن يظلوا على بربريتهم ولم تتأصل الارستقراطية الوراثية في جانب الاستبداد المطلق وربما كان ذلك أحد الاسباب التي قضي بها على الامة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون ان بالارستوقراطية تتهذب الاخلاق وتتثقف عادات الشعوب وبواسطة الطبقة المتوسطة تنتشر المعارف وتبدأ المدنية . ان فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط بل انه حلّ لنا معنى جمود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات وكيف لم يتقدم قيسه

غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ـ وفي حكومة تغار من كل مالا تكون هي منشأه ومصدره ـ شيء من المنافسة والقدوة وحب المجد، وبدون هذه الاسباب يقضى على كل مجتمع أن يبقى في الجهل الاعمى الذى كان عليه لاول أمره ، وان يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهد الاتراك في العلوم والآداب ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في أيدي مواليهم . وكانوا فى الحقيقة أعداءهم ، وذلك لان الاتراك كانوا يشمئزون من كل جديد ومن كل مالم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا أن يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في أوروبا . وهكذا لم يكن لهم نقض ولا ابرام في مصادر سعادتهم وقوتهم وفي متانة جيوشهم وأساطيلهم . ولا يخفى ما أضاعه الاتراك بونأهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي أصاب منه الاوروبيون قسطاً موفورا . ولما كان الشأن في حروبهم لجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما أبرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات كان العقل المساعد هو المخيف للشجاعة . شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البريتوريان في الرومان فى حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك أن يختاروا أميرهم سواء فى ذلك شعوبهم وجيوشهم وكانت مصلحة الانكشارية تقضي أن يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . أما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة أكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا على مدينه الاستانة كانوا يوجهون أنظارهم على الدوام الى البلاد التي أنشأتهم وتناسلوا فيها فكانوا أشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في أوربا ، من ورائهم قبور أجدادهم ومهاد عبادتهم وكل مايقدسونه ويحترمونه ، وأمامهم شعوب يكرهونها ، وأديان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراءى لهم أن الباريء تعالى يلعنها . وأهم

ما أخر الاتراك وقادهم الى انحطاطهم ذكرى مجد سالف واعجاب وطني لاتناسب بينه وبين نروتهم وقوتهم : فكانوا يستهينون ولهم القوة بالاخطار التي تهددهم فاذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين واذا غلبوا حملوا على رؤسائهم »

هذا رأي المؤرخ الافرنسي في العثمانيين وعلة انحطاطهم . وقال غيره واغرق ان شأن الاتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها اذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلا موقتاً ضربوا خيامهم فيه اذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم في الارض التي ينزلونها سوى آثار أطنابهم وعمد خيامهم فقط

***

اظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض عمالها مثالا مجسما من التجدد في الممالك وبدت أمارات قوته بعد ان قرض المماليك من مصر فلم يسع الباب العالي الا الاعتراف بسلطته ومراعاته ومحاسنته شأنه مع كل عامل أحرز قوة على شرط أن يؤدى الجباية في أوقاتها ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي أسعد طالعاً من سلطانه لانه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما اصطدم به السلطان محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصريين قبولاً لدعوته واستعداداً للمدنية. وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التى استخدموها للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون تعصب لقومية ولا عصبية شعوبية

فقام بما أراد فى مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد بل فتحت مصر بفضله صدرها لذلك . بيد أن محمد علي لم يقف عند الحد الذى بلغه من الاستئثار بوادي النيل وطمح الى التوسع فى الملك . ولكن أى البلاد يفتح؟ هل يتوسع فى أفريقية ؟ في صحراء ليبيا وصحراء النوبة . وهى أصقاع لاتوازى العناء وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل فى شمالى أفريقية أو فى أواسطها

أم يقصد الشام وهي مفتاح كل فتح وفيها من العمران مايوازي العناء في استصفائها وبينها وبين مصر من وجه الشبه مالا ينكر ثم لا يصعب عليه اذا خفقت عليها أعلامه أن يتقدم الى الامام ويملك من بلاد العرب والترك ماطاب له ولا يعلم ما تحدثه الايام

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد أن خلق له سبباً معقولا لفتح الشام . وذلك ان بعض فلاحي الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعنات عمال محمد علي بالجندية والضرائب فلم يسعهم الا أن يهاجروا الى جهات غزة ملتجئين الى والي عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي ارجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام فامتنع الوالي من ذلك بدعوى ان الاقليين تابعان لسلطان واحد فاستشاط محمد علي غضباً خصوصا وهو الذي كان استرضى خاطر الدولة على والي عكا وكانت غضبت عليه ودفع عنه ستين الف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه فتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فامر سنة ١٢٤٧ هـ باعداد جيش للسفر اليها عن طريق العريش وطريق البحر في آن واحد وذلك لمحاصرة عكا من جهتين وعين ولده قائداً عاماً للجيوش وسليمان بك الفرنساوي قائم مقام له وجند ستة الايات من المشاة وأربعة من الفرسان ومعهم أربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن . توصل ابراهيم باشا مع الاسطول الى حيفا وفتحت له غزة ويافا والقدس ونابلس وكان أهل حيفا يبلغون اذ ذاك ثلاثة آلاف نسمة وعكا أشهر مدن الشام بحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل فدام حصارها نحو سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة ومن البر ثلاثون الف جندي وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين الف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب فترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا والتقى في ضواحي حمص مع

القسم الآخر بالجيش العثمانى الذى كان كأخلاط الزمر لا نظام له ولا دربة فابلى المصريون بلاء حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصى وغرق كثير منهم فيه واختفى عثمان باشا فى حماه ثم احتل ابراهيم بعلبك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين اتوه بانفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الاتراك فى أرض حمص وأتاه الامير بشير الشهابى الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بفتح المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية وأخذ عبد الله باشا والبها أسيراً وحمل الى مصر مكرماً ثم فتح الاسطول المصرى سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور

وبعد أن فتح ابراهيم عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير وامراء حاصبيا وراشيا فجمع علي باشا والى المدينة عسكرا من الاكراد واحداث البلد قدر بعشرة آلاف وكشف ابراهيم باشا بمنظاره جنود الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادى لمقاتلة الاكراد ونبه على العسكر النظامى أن يقاتلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم بل يطلقون البنادق فى الفضاء فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الاكراد جهدهم حتى غلبوا وفى أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم

ويؤخذ مما قاله البيطار أن ابراهيم باشا قد ساعده الامير بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس لان عبد الله باشا والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان ذلك من أسباب الغلاء الذى وقع في الديار الشامية وأن ابراهيم باشا بينما كان جيشه على عكا يقاسى الاهوال ويتجندل منه الرجال اثر الرجال جاء عباس باشا ابن محمد على باشا الى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم وافترق أهل جبل لبنان وتلك النواحى فرقتين فتابع النصارى منهم الامير بشير المتفق مع ابراهيم باشا وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس

وحمص ودخلهما بلا قتال . قال : وتوجه ابراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر وعاونه أهل الجبل من المسيحيين والدروز وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع اليهم ابراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ثم دخل عسكر ابراهيم باشا عكا من الابراج على السلالم وذكر بعضهم أن من جملة من قتل من عسكر ابراهيم باشا اثنا عشر ألفاً ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ ارسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جوابا ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه انا لا نمكنك من الدخول أصلا . وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الى لقائهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوه قتالا يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل أو رجلان ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها على باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد شوربجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو أربعة آلاف وفرّ باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين ألفاً وغنم أموالهم وعتادهم . وسار بعد ذلك الى حماه فحلب فملكها بلا قتال . ثم جاء إنطاكية وعينتاب واللاذقية . واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتلة عظيمة . وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشا آخر بلغ عدده ستين الف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهزم الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والاسرى ٣٠٠٠ وتقهقر الجيش التركي الى حلب . وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه أهلها خوفا من انتقام ابراهيم باشا فتقهقر الى بيلان فتقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين

مدفعا . وكان غنم منه أولا اثنى عشر مدفعاً ثم غنم أربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين أربعة آلاف وقتل من المصريين خمسمائة وخمسون ووقع فى يد ابراهيم باشا الفان من العساكر النظامية اسرى من الارنؤد والهوارة فأعطاهم الامان وادخلهم في جملة جنده واختفى حسين باشا ولم يعرف له أثر واجتاز ابراهيم باشا جبال طوروس. وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر وفي رواية اخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات ، ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين الفا فالتقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا أسيراً في أيدى المصريين وانهزم الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الوقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون ألفاً

ويقول مشاقة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى أربعين الفا من الترك على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثنا عشر الفا وكان أبقي من عسكره جانباً للمحافظة في البلاد المفتتحة وهلك الآخر في الحرب أو الوباء فغلب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لِمَ لمْ تستطع الدولة أن تجيش في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل أسطولا الى عكا يصدُّ عنها أسطول محمد على باشا أو يقيم العثرات في سبيله كما انه استغرب كيف ان العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية أعدائهم وانهزموا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً وألفى أسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جنديا .

وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول حتى وصل الى كوتاهية وأراد أن ينزل بورصة بحجة انه ليس له في الاناضول حطب ومؤنة في الشتاء وكان الطريق الى الاستانة أمامه مَهْيَعاً لا يقف فيها ما يوقف سيره . وأهل الاناضول

والاستانة راضون عنه . وكان ابراهيم باشا يشيع أن مقصده من غزوته هذه توطيد دعائم السلطنة . وكانت حاشيته من الاوربيين تحثه كل الحث على أن يواصل السير ويفتح الاستانة وأن لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما أخذه من آسيا الصغرى . ولو استمع لهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلا من دولة الاتراك فأعاد محمد علي بذلك الدولة العربية

قال دي لاجوفكيير ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد وهذا الطموح بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك وهذه المشكلة التي كان يتأتى أن يكون منها عراك بين قوميتين العربية والتركية بقيت مقصورة في دائرة معينة من الحرب لم تتعد حد القتال بين ملك وأحد عماله الناشزين عليه . ولما رأى السلطان محمود ما آلت اليه حاله عرته الدهشة وداخله الفزع فطلب معاونة الدول العظمى علناً على الثائر محمد علي باشا ، وحرص خصوصا على معاونة روسيا التي أصبحت بعد معاهدة أدرنه ترى نفسها حامية الدولة العثمانية وليس من مصلحتها أن تكون هذه الدولة قوية مقاومة . فاخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي . واستدعى فيلق البغدان وهو مؤلف من أربعة وعشرين الف مقاتل ليأتي الى الاستانة وعقدت معاهدة في كوتاهية على أن تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمد علي ويرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك والخطبة تلقى في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين دعيت معاهدة (خُنْكار اسكله سي) وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضايق في قبضتها فهلعت قلوب اوربا لذلك وأخذت انكلترا تحسب لهذه المعاهدة الف حساب

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقره في انطاكية فكان يحضر

أحيانا الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أثم حالة بلاد الاكراد وكانت منتقضة على الدولة العثمانية اذ ذاك . وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية « الحاج ابراهيم، والي جدة والحبشة وسر عسكر حالا » وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا « سر عسكر عربستان » أي قائد جيوش بلاد العرب

وفوضت ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتها الى حنا البحري وكان هذا من المقربين جداً من محمد علي . ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) وأقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكما مستقلا ورجح مشاقة ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي أفنت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي دمشق ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ أوامره في انحاء البلاد البعيدة . وعهد بتنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري . وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الرفق بدمشق اكثر منها في حلب . لان الحلبيين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ولم ينزلوا عن القلعة حالا ، وقال مشاقة بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالا لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك بعض أعوانه

وكان من أول أعماله الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية واقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة وترتيب المالية وجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وأرباب النفوذ ان استثقلوا ظل الدولة المصرية وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحملة الطفيلية تمص دماء الضعفاء مع ان البلاد رأت في أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن

في ربوعها وأحيت الزراعة والتجارة والصناعة وعمت تربية دود الحرير ودود القرمز واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيساً يتقاضى الامير ضعفيها ويدخر في خزانته الخاصة المال الزائد على المفروض . وأكد كثيرون ان بعمله هـذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم . وأخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيهـا الثائرون مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس . وخرب العلماء والشعراء ، ورخص للاجانب في ارسال معتمديهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه ابراهيم ـ عملا بايعاز أبيه ـ لتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً وأعظمها خمسمائة قرش فان هـذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع معظمها عليهم مثل أهل حلب وأهل دمشق

لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ماوقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنة بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيان النصيرية فندب الامير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكراً خيم في البهلولية فهرب النصيرية وتركوا مواشيهم وغلالهم وأمتعتهم وفروا بقضهم وقضيضهم ففتحها المعسكر وأحرق لهم خمس عشر قرية وقطع أشجارها ثم أحرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين اخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الامير والنصيرية . وعلل مشاقة هذه الوقائع بان المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر وطلب أموال أميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتمنون رجوع حكم الاتراك وابتدأ الناس

ينفقون عليهم واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ مركزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فارسل الحاكم عسكراً لقتالهم من لبنان وحاصبيا وراشيا فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ولعدم العناية واستخفافهم بالخصم آلت الحال الى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى اللاذقية يتعثرون باذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكراً كثيراً وقهرت أهلها

وأوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بألفي مقاتل الى طرابلس سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٣٣ م ليجتمع هناك بسليم بك أحد قواد المصريين لتأديب العكاريين والحصنيين والصافيتيين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع والغالب أن وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى صافيتا وعكار والحصن أو امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت واللاذقية واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج أهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو عشرين يوماً وكان لبيت أبي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنة ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فلما ضاق الحصار بابراهيم باشا أرسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكراً ولا مالا فرضي قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته فرجع على عقبه في الحال واشتغل بالقتل والنهب والسلب فهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بعسكره . واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من أهله ولم يزل يتبع أثر قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله

في دمشق وقتل أربعة من أولاده بالسيف وأمر بجمع السلاح من جميع البلدان

لاجرم أن ابراهيم باشا اخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو مافعل أبوه في مصر وكان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه الى حين لان صاحب البلاد الاصلي لم يقطع آماله من استرجاعها وهو يسعى بكل ممكن الى استخلاصها من غاصبها وكل ماتنفر منه قلوب الرعية يفرح منه لانه يخدم مصلحته فمسألة التجنيد قللت من أنصار الحكومة المصرية في البلاد لسهولة اعتياد الناس الجندية في ذاك العصر اذ أصبح الناس يعدون التجنيد من باب القاء النفس في التهلكة وزال من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف وهذا الروح كان قد ضعف في الامة بعد أن حكمها الغرباء قرونا بالعنف والقهر . قال في دائرة المعارف الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من أهلها الى آسيا الصغرى والعراق ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية نتج منه انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان الغضب العام لم يكن أقل منه . وجاء في تاريخ حماه ان ابراهيم باشا كان يحشد الناس لبناء الثكنة العسكرية في حماه ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه الى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الانهار وربما قلم الانسان عين نفسه أو قطع اصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية

ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وأبوا تجنيد أولادهم فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فالتقوا به في جنوبي اللجاة في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا فقاتلوه وقتلوه وأهلكوا خلقاً كثيراً . ثم أنفذ ابراهيم باشا احد رجاله شريف باشا الى قرية ام الزيتون في وادي اللوي في أربعمائة فارس فقتلهم الشيخ حمدان الدرزي عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا أن سبب هذه

الوقائع ان ابراهيم باشا طلب ١٨٠ نفراً للجنود من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان وأرسلهم الى عكا فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عاد الى بلادهم قلبوا ظهر المجن فتوجه اليهم الجند بقيادة علي أغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر أغا أبوجيب فعقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة فى هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الانفار وأرادوا الاستعاضة عن الاشخاص بالبدلات العسكرية. فقال البصيلي اني ارسل مراسلة استشير بها أفندينا وعلى ذلك قر القرار . وفي تلك الليلة كبست الدروز العساكر وأذاقتهم كؤوس المنية ، وقتل أبو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز ، ولم يسلم من القتل سوى البصيلي وخمسة عشر نفراً. ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الوقعة التى قتل فيها الفريق محمد باشا وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم أن المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامى . وروى مشاقة أن العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلا من الهوارة قتلوا الا قليلا ، فأرسل ابراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع ، مع أن الدروز يومئذ لم يكونوا أكثر من ١٦٠٠ مقاتل ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أخرى فرأى الرعب قد دب في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى أن قادوهم الى سهل دامة وهناك رجموا عليهم وأعملوا السيف فيهم وفتكوا

بجموعهم . ولما عرف ابراهيم باشا أن عسكره ذعر من شجاعه الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كاوت بك يستحضر منه محلولا قاتلا فرفض هذا إجابة طلبه وحاول أن يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القسوة التى تشمل الحريم والاطفال معاً

أما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولا والرعية ثانياً. ولما عجز عن اخضاع العصاة ألزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني ألقاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشا وأتوا الى اقليم البلاّن

وكان دروز وادى التيم واقليم البلاّن ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان . ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكراً من الارناؤط فأنجده أبوه باربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعرة أيضا فلم يظفر بهم وكانت دروز البلاد تنجد دروز حوران سراً اولا ثم أخذت تنجدهم علنا ـ أما نصارى لبنان فتجندوا أولا مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم

وتجمع العصاة فى قرية حنية من اقليم البلاّن فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلا . وبلغ شبلي العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعرة وحاصر العسكر المصري في سراى حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين واضطرمت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ففر الجند المصري منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بمن

معه وأعمل في اقفيتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلثمائة رجل وانشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون . ثم جمع ابراهيم باشا ماتشتت من عسكره في البقاع وعاد فخيم في قرية عيحا قرب راشيا فاتته الدروز وتحصنوا قبالته في غاية هناك وانشبت الحرب بينه وبينهم فلم يظفر بهم . ثم اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكا فهجم عليهم ابراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب . فقتلوا من الجند المصري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطرواعقيبها الى الفرار . قيل انه قتل من الدروز في الوقعة الاولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم . ثم حدثت وقعة في قلعة صخور وتفرق الدروز وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فاجابه اليه وجعله قائدا على الف فارس هوارة . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفاة فاستسلموا له ومات من عسكره « ٥٠ » جنديا دنقاً

* * *

بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر أمره الى ابنه ابراهيم باشا باحتكار اصناف الحرير للحكومة وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي وبتجهيز عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الحنق لنزع السلاح من الشاميين ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطيء الاردن ، وفي هذه الوقعة التي انتهت بقتل قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق قتل ابراهيم باشا كثيرا من زعماء الاتراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه وأخذ الدروز والنصيرية والموارنة يستعدون للثورة تهيجهم عليها عمال الدولة العثمانية وانكلترا تحرض العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روي كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنتين التاليتين لامر التجنيد نحو عشرين الفاً

وممن انتقض على ابراهيم باشا أهالي الكرك فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حامية من جنده لم يمض إلا قليل حتى تمرد السكان وذبحوا الحامية

والموظفين عن بكرة أبيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آتية الى مصر فأضلوها الطريق وأهلكوها الا قليلا

كانت الدولة العثمانية ـ بمعاونة انكلترا ـ لا تفتأ منذ دخول المصريين الى الشام تدس الدسائس في البلاد ، وتستميل رؤساء العشائر وأرباب الزعامات والاعيان بالمال تارة والوعود الخلابة أخرى . وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني ـ وهو خمس سنين أيضاً ـ ومضى أكثره وأدى المقرر عليه من المال ارتأى العثمانيون بايعاز انكلترا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل ، وفي رواية في مائة الف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها طائفة من كبار ضباط روسيا وبروسيا ، وزحف ابراهيم باشا في أربعين الفاً ، حتى انتهى الجيشان الى سهل نزيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك القتال بين الجيشين ثماني ساعات ونصفاً ، فتراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة آلاف وقيل أربعة وأسر اثنا عشر الفاً ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الوقعة ١٦٦ مدفعا و ٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين أربعة آلاف ، وقتل المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة اسداسهم

انتهى خبر الهزيمة الى الاستانة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلوس ابنه السلطان عبد المجيد فتى في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي وليس للدولة جيش وقد فقدت اسطولها في الاسكندرية سلمه لمحمد علي أمير البحر احمد فوزي باشا . فرأى السلطان أن يسادد ويقارب ، فارادته الدول على أن يتربص ريثما يتوفقون الى حل مرضيّ باجماع الآراء بينهن ، فكان من ذلك حل المسألة المصريه العثمانية بالطرق السلمية

الحربية. فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تجدد معاهدة (خنكار اسكله سى) بين العثمانية والروسية وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول على ان تبقى المضايق والدردنيل تحت اشرافهن . وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكا وراثيا له ولاولاده من بعده فارضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاضدة فرنسا، وقضى على محمد علي أن يخرج من اذنة والشام، وان لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا أي فلسطين من أرض الشام . فقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا

بيد أن محمد علي أبى ان يخرج من الشام، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستوپفورد فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور، وقاومت عكا بعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية قذائفها ثلاث ساعات أصابت مستودع البارود فانفجر وقتل عدداً كثيرا من الرجال، ثم اضطرت العساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله وتناصره برأيها ومعاونتها الادبية

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ ـ ١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلخانة أو البراءة السلطانية، وهي أول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحريتها، ويضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد، ويطبق القانون العسكري، وغير ذلك من الامور الادارية، فصفقت أوربا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته، وكان هذا القانون مما أوحت به انكلترا وأملاه عقلاء الساسة من الاتراك في العاصمة

ولما أحس أهل لبنان بواسطة دعاة انكلترا ان الدول ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة ـ ان لم ينجل مختاراً ـ أخذوا يناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المتسلمين من المصريين . وكان الامراء الشهابيون واللمعيون يقوون العامة سراً ويحثونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس باتفاق الدول الاربع النمسا وانكلترا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم . واشتدت الفتنة بين أهل الجبل والامير بشير ، وأخذت البلاد بالخراب ، المتصل ، وحرق ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبى حريماً

وكان أمير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته

وقبض المصريون على ٥٧ رجلا من أعيان لبنان ـ بينهم أربعون من أمراء الشهابيين ـ كانوا يدعون أهل بلادهم لخلع طاعة المصريين ، فنفاهم ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، وأخذ أعوان أمير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيل وطرق للغارم

وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي ، في أربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني وألفي جندي أوربي . فأخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخل البلاد ويستدعي جنوده من الساحل . وبحسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن أقل من عشرين الف جندي

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فرّق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبيوت الارامل والايتام ، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي ،

خارجاً من « باب الله » ، ونزل في سهل « القدم » ومنها قصد الى مصر عن طريق البر

وقبل مسير ابراهيم باشا من دمشق أرسل خالد باشا التركي من الساحل احمد أغا اليوسف في شرذمة من الجيش ، فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل ، فهزمه شر هزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة . اما احمد أغا فنزل بعسكره بعيداً عن دمشق في احدى قرى الزبداني ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالامر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام ، فخرج أهل دمشق لوداعه ، وخطبهم وحرّضهم على الاخلاد الى الطاعة والسكينة ريثما تعود الحكومة العثمانية

وعينت الدولة علي باشا ـ الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا ـ وكان أشد الاتراك تعصباً . وبقي قنصل انكلترا المستر وود ـ الذي أثار الموارنة على ابراهيم باشا ـ مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة أعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله ونصب ذاك فتنصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمير مطلق

أراد محمد علي أن يقاوم دول اوربا ويظل في الشام . ولكنه علم ببعد نظره ان ذلك متعذر ، لان اسطولها ضرب بيروت وأحرق الاسطول المصري وأنزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان الموارنة بعد ان كانوا عضد ابنه ابراهيم أصبحوا يعاونون الاوربيين على طرده من الشام . وتقدم أمير البحر بابيه امام الاسكندرية ، وأخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لانكلترا ـ بالاتفاق مع النمسا ـ في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكانه خلع طاعة المصريين

والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة اخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانكليزية وأن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها

* * *

كانت حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها، لانها وضعت أصول الادارة والجباية، ورفعت أيدى أرباب الاقطاعات، واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ولم يخلص من ذلك الا الامير بشير والى لبنان فانه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر، وظل يتصرف بلبنان . وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين

قال مشاقة : وكانت الدولة التركية ذات خبرة باحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية، فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعاً بارجاع نفوذهم . وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز في حوران ووادي التيم، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم في الشام بالحروب والقلائل اهـ .

ومن مآثر الحكومة المصرية ـ التي عددها ـ مشاقة تجفيفها المستنقعات وتصريف الاقذار في مجار خاصة وتحديد أسعار اللحوم والعدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم وطبقاتهم لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه وانفاق كل مال في وجهه المخصص له . ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لانه اعتاد أن يكون محكوما لا حاكم نفسه ، عبداً لا حراً . وأكد ان الانكليز استخدموا رجلا اسمه المستر وود وكان من رجال السياسة فجاء كسروان

بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية وأخذ يبث الدسائس حتى اعلن الكسروانيون العصيان وقاتلوا جيشا من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال أياما وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً ، وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار

ومدح مشاقة الامير بشير الشهابيّ الذى كان عضدا قوياً لابراهيم باشا وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ م الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت على الساحل الى مالطه فبقي فيها منفيا ولم يستطع أن يعود الى امارته. وقال : انه كان شجاعاً مقداماً وقائداً محنكا وسياسياً داهية خدم الجزار بكل أمانة ونشاط وخدم خلفه وحفيده مثله وخدم الدولة التركية والدولة المصرية وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها وكان صادقا أذا وعد أمينا على واجبه ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر

وانتقد مشاقة على حكومة محمد علي تقاعسها عن اشهار استقلالها على الدولة التركية ، مع انه كان من أسهل الامور بعد ان اكتسحت البلاد ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكا مستقلا وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنبية وعقدمعها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان . ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية لاجبرتها على الاعتراف بسيادته، لانه استحال عليها اخراج جنوده من الشام أو صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم ، أو لكانت على الاقل اضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً

* * *

اثبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصري بل العربي اذا تهيأ له زعيم

عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته وانه لم يضره في القرون الماضية الا فناؤه في الحكومة التركية بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والتركي اخوان . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل ان الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلا عما يماثلها

كتب المستر برانت ـ قنصل انكلترا في دمشق ـ الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ ما تعريبه : « لما كانت الايالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضي المهملة . وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارجاء الواقعة حوالي حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية . وفي هـذه الاماكن اكره العرب على احترام سلطة الحكومة وجعل السكان يأمن من اعتدائهم . وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي منظم وغير منظم بامرة ابراهيم باشا . فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الامن ومد رواق الثقة

« وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك اذ كان عليها أن تصلح عدة امور مختلفة وأن تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التي كانت سائدة

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من

الذل لا تطاق . ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل

« وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فاعفوا من الخدمة العسكرية . والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة اسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات . وكم من مرة ذهبت الجنود بإمرة ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نقف منها . وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى فى مدارج النجاح والنماء فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء واصابت شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات حوران وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون . »

قال« ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقاص ظلّ سطوتهم ـ وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة وخلفت الرشوةُ والتبذير في ادارة المالية النزاهةَ والاقتصاد ومنيت المداخيل بالنقص واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول انه لا يوجد ثمّ ظل للامن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التى تركها المصريون »

هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزى. وقال بيربيه الافرنسى في كتاب « الشام على عهد حكومة محمد على » ما تعريبه « ما من

بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظهر من مظاهر الحياة وليس منلها في البلاد قضت الشقاء من تقلبات الزمان وسقيت بالدماء فان صُقعها المدهش وجمال اقليمها وتنوعه ومركزها المهم الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نبهت اطماع الفاتحين وجلبت غير مرة على الشام ويلات الحروب

« وكانت الشام على عهد الاتراك العثمانيين مقسمة الى أربع ايالات : حلب وطرابلس وعكا ودمشق. وقبل مجيء ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تبعت السلطنة، فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان. وكثيراً ما كان السلطان سلطانا بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى أربع ايالات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة. وكثيراً ما كان الباشاوات يشنقون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران. ولطالما شنقت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق

«وكان الدم يجري لاقل شبهة والعذاب الاليم يحل فيشنق الباشوات « ويحوزقون » ويجعلون العصاة على الحديد ويحزون الرءوس. وبذلك كان يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضوا للحرق والشنق »

قال : « ومن المحقق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة. وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين. وذلك بان استمال اليه قلوب أشرافهم وأعيانهم والقى بينهم الشقاق ضمناً عند الاقتضاء وبذلك تيسر له حكم البلاد ووضع ضرائب شديدة عليها

ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان بختلفة وكان شريف باشا حاكما على الشام كله وتحت يده الحكام وكان طماعا في المال» .اه

* * *

هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا وماهي في الحقيقه الا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منها ابنه ولا يصدر الا عنه فى الخطوب ولا يقطع أمراً دون الرجوع الى رأيه حتى جاءت احكام المصريين نموذجا فى الادارة

ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور لايعمدون الى حسن الادارة ويتظاهرون بالاحسان الاّ يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم في اعنات الرعية والقاء الحبل على الغارب

وهذا مادعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار وهو الجلاء الذى اقتضته الدول الكبرى بل الدولة الانكليزية التى حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام لتكون هي الحاكمة المتحكمة فى مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التى تحب فرنسا وتساهمها سياستها أحيانا . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها فى البحر المتوسط . واذا اردنا أن ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على امانى محمد علي بل امانى العرب من انشاء دولة عربية كما أوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين فى نجد والحجاز حربا عوانا . لانه كان

يخشى أن يؤسسوا أيضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عثرة في سبيل اماني تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب

ولو نظرنا الى ماوقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح لم نره الا قتالا مع العثمانيين أى قتال الجيش المصرى مع الجيش العثماني . واذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا أو عن دمشق أويوم حمص مثلاً اناس من الاكراد والهوارة فهؤلاء ليسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفئة أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى صفوفه فأخذوا يقاتلون معه ولم يلتوِ القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الاجانب وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال والا فان المدن والسواد الاعظم من الناس استقبلوه واخلصوا له وشمروا بحسن ادارته ولاسيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم ادركوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك

حركة النشر والتأليف

﴿ كتاب السياسة لافلاطون ﴾

« استخراج احمد بن يوسف »

الطبعة الوطنية في بيروت ٭ بعناية جميل بك العظم ٭ ٧٤ ص بقطع الزهراء

دارت مناظرة بين أبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب(١) وبين معاصر له يتعصب للفرس ، ويرى ان اليونان انما برّزت في الحكمة دون السياسة . وأراد

(١) الذي طبع له في القاهرة سنة ١٣٣٢ كتاب المكافأة في ١٢٨ صفحة (توفي في حدود سنة ٣٤٠ ھ)